كتاب: رسائل إيمي إلى ديفيد

للكاتبة:سهام أبو الحسن محمد

إهداء

إليكَ وإليكَ فقط أُهدي هذا الكتاب
ملازم أول، د/ محمد أسامة عبد الكريم.
و إلى من كان لهم الفضل في بلوغي هذا المقام، لكل من دعمني وكان معي جنبًا لجنب وشكر خاص إلى الأستاذ القدير الطيب المسلمي.

المقدمة

هي نبذة قصيرة عن وتين علَّها تروي عطش قلبي إليه، ففي البداية أطلقت هذا الإسم على شخصية خيالية؛ نسبةً لأمواج العاطفة التي تعتريني من حين لأخر وما من أحد حقيقي في عالمي ليصغي إليّ؛ لذا افترضت لو أن لي وتين أناجيه بما أشعر.
فكتبتُ، كتبت إلى الخيال إلى أن إنتهى زمن الفرضيات، إتضحت الرؤيا وتحقق الأمر حبًّا، فها انا ذي أكتبُ إلى مدد خافقي وذاده، إلى من حُمِّد في الدنيا وبُورِكَ قلبه بي.

أما بعد

السلامُ عليكَ في قلبي والسلام على قلبي الذي وجد السكينة بين أضلعكَ، ثم السلام علينا وعلى حبِّنا معًا.
يحدث أن تتخذ الوحدة خِلٌّ لكَ دون غيرها، فأنا منذ أن خُلقت لم أعرف لأُنسِ الإنس سبيل، كنتُ وحدي أمشي، أتعثر، أسقط ثم أنهض من جديد وكل هذا دونَ أن أحفلُ إني بحاجة لأحد.
كل من أحبَّ بصدقٍ وصل إلى ما سعى وكل مَن سعى إلى الحُبِ وجده.

اللقاء الأول

العلاقات الطبيعية تبدأ باللطف إلا هذه، بدأت بشجار بيننا...
لأول مرة أتطاول على مسؤول لكنني لم أكن أدري أنَّكَ أنتَ بالفعل، حينها وضعتُ عينيّ موازية لحدقتيكَ وتكابرتُ كما فعلتَ أنتَ.
درستُ نظرتكَ جيدًا بيدو أنّها غامضة بعض الشيء لكن ليست عليّ، انا التي لا يصعُب عليّ فهم رجلٍ أيًّا كان، لا لإختلاطي بهم الذي يكاد ينعدم؛ إنَّما لتعلقي الشديد بلغة الجسد ودراستي لها، سرعان ما انتهى الشجار المتكبر هذا بكوبِ قهوةٍ لطيف، ما أسعدني أنّه برغمِ صرامتكَ لم تكُن قاسٍ، صرفتَ البقيّة وأبقيتني فإسلوبي راقَ لكَ واستطيبته.
إنَّ اللّطف والأمان هما ذادُ المرء إلى قلوبِ الآخرين، ففي روايةِ إلى المنكسرة قلوبهم للكاتب العظيم أدهم شرقاوي أنّه وعندما حجَّ إلى بيتِ الله كهلاً سودانيًا عانقه باكٍ؛ لكوب قهوة موضحًا ذلك باللطف والأمان، فالإنسان حين يأمن يتعرى مِن كل ما صَعُب عليه حمله ويستكين، كذلك انا يا وتين منذ أن عرفتكَ رأيتُ سكينتي فيكَ.
الأول من يناير مولدكَ أنتَ، أمّا مولدي في كل لحظةِ حبٍّ عشتها معكَ، كل لحظة تعانق فيها عينيكَ قلبي، بين أضلعكَ، داخل مهجتكَ، بين شفتيكَ اللتان لفظتا كل كلمة حب لي وفي كلَّكَ يا قلبي.

منتصفُ مارس

على موعدٍ اخترناهُ معًا ومكان اخترته أنا، عند الحادية عشر صباح الأربعاء كانت المرة الأولى التي نلتقي فيها خارج نطاق العمل، مكالمة هاتفية مني إليكَ محتواها: أين أنتَ؟ قلتَ بأنَّكَ قريب و وعدتكَ بإنتظاركَ مع أشد أنواع العقوبات على تأخركَ، رغم إنِّي لم أكن أميِّز عطركَ إلَّا أنني شعرتُ بقربكَ وباغتني فجأةٌ بالسّلام عليكِ!
وكأنكَ صببتَ ماء بارد على قلبي بحيث تجمدت حواسي فرددتُ السلام بكل ما يحتويه جسدي من إرتباك، جلسنا فبدا لكَ مكانًا عادًيا قد لا يليق بكَ أو لم تتوقع مني أن أجلس تحت تلك الشجرة مع زجاجة ماء فقط، ربَّما مظهري لم يحي لكَ أنني بتلك البساطة، لكنني لا ءأبهُ للأمكنة بقدر ما يهمني الشخص الذي بجانبي وقد كنت أنتَ! إذا لا يهم أين؟!
كسرتُ حيرتكَ بأنَّه البحر، نعم أُحبه أكثر من نفسي! فهو الذي يخبيء ألآمي، الوحيد الذي يسمعني آن حزني ويتقبلني كيفما بدوت.
قلت لي: لا بأس ونحنُ مًعا ثم رمقتني بنظرة تفاديتها بشغبي المعتاد فغمزتكَ وابتسمت، شرعنا في أحاديث عدة تارًة شخصية وأخرى عامة، لا أنسى أنكَ تغزلتَ بي حينها إرتعش قلبي إذ لم يسبق لي أن سمعت كلمات غزل عني أمامي، تجاهلتُ إضطراب قلبي و واصلت أنتَ بأنَّ سحُر عينيّ ورقة صوتي لا يمكنكَ مقاومتهما.
زاد إرتباكي فغييرت مجرى الحديث تمامًا، أتذكّر ذلك اليوم تفصيلة تفصيلة مثلما أحب تفاصيل تفاصيلك، مرَّت أربع ساعات ونصف كأنَّها أربع ثوانٍ.

حقًا إن المرء إذا جلس مع مَن يحب دهرًا بأكمله لأحسَّه لا يكفي، كنت أودُّ إستبقاءكَ مَنتعكَ الرحيل عدة مرات و كان سلاحكَ بأننا لم نُحدد موعدًا للرحيل، المرة الأخيرة باءت بالفشل؛ لأنكَ تحججتَ بمَن ينتظركَ في مقر عملكَ القريب مِنا، هممنا بالمغادرة إقترحتُ لكَ أن نرجع سيرًا على الأقدام، فثَمة شعور كان يجتاحني بأن غيابنا سيطول ولن نلتقي قريبًا، حدسي لا يخيب؛ لذا كنت أريد أخذ ولو القليل من عطركَ، أحتفظ بملامحكَ ولمسات يديكَ، نظراتكَ الحانية وحركاتكَ المزعجة تلك التي تثير غضبي وتضحكَ، لا أمانع أن تزعجني لتضحكَ، المُحب يشعر بمَن يُحب، يستشعر بعده يا وتين وهذا ما حدثني به قلبي، كنتُ أودّ حفظ كل جزء فيكَ، كل صغيرة وكبيرة كنتُ أنوي حملها معي، عارضتَ اقتراحي بأنكَ ستستقل أول حافلة مواصلات تأتي، كل شيء راق لي فيكَ، حينها لعبتُ معكَ لعبة أنتَ ستوقف الحافلة وأنا أعتذر لسائقها بأن عذرًا فهذه ليست وجهتنا ولن نمتطي حافلتكَ، إستمرت اللعبة إلى أن وصلنا بادئة الجسر، كنا نضحك كثيرا وما أن رأيت تلك الحافلة ذات الباب القصير المفتوح عزمت على إلهائي وسرعان ما وقفت! جلستَ في أول مقعد وقع على نظرَك و سحبتني أن أجلس جوارك، كما العادة نفذتُ دون نقاش وما إن جلستُ عاتبتكَ لِمَ فعلتَ هذا فشرعت أنتَ بالضحك؛ لإنصياعي لكَ دون تردد، لكنكَ لم تفهم قصدي فقد كان همي الوحيد قضاء أكبر قدر من الزمن معكَ.

ها قد وصلنا إلى المستشفى دخلت معكَ، عظيم أنتَ ومَن يرافقكَ يكتسبها منكَ. لا أدري ما كنتَ تفعله لكنني طفتُ معكَ بالقسم كلّه وخرجنا ممسكًا يدي مشتتًا بها جميع حواسي، إفترقنا عند البوابة الرئيسية ودّعتكَ وأنا أتفحصكَ للمرة الأخيرة، فأنتَ لم تفهمني...لم تفهمني أبدًا يا وتين، أواهٍ لمنتصف مارس! حيثُ مارسنا الحب تحت مسمى اللّا شيء.

إني أُحِبُّكَ رغم العقبات، أتنفس بكَ رغم قلة الأوكسجين وأتوق لرؤيتكَ رغم أنف الحرب.

على رصيف الأحلام

سأخبركَ أمرًا ربما يبدو خبيثًا بعض الشيء لكنه بالنسبة لإمرأة مثلي فإنها تجربة إختبارية أجريتها لأمر راودتني شكوكي فيه، سأحدثك عنه لاحقًا.
هناك...على حافة البحر نحن، نتسامر في هدوء تام فقط انا وأنت يتوسطنا كوب قهوة، أحاول إقناعك بقصة حبي للبحر وشرحها لك، تحاول استيعابي لكنك تفشل لا لشيء غير أنها قصة معقدة جدًا لا يفهمها إلَّا من عاشها، أشرح لك أن خلف سكونه أمواج حزني المتلاطمة، تسكتني بأنَّكَ لا ترى سوى بحر عينايَ الذي كاد يغرقكَ، هممتُ بإرتداء نظارتي التي حُظِيَتْ بعناق يديكَ، لكن هيهات قد أوقفتني يديكَ أن دعيني أرتوي من تلك اللؤلؤتين.
إبتسمتُ لك وبدأتُ بتحسس أوردتكَ البارزة والجذّابة، كانت بالنسبة لكَ حركة عادية، ما يهم أنني وبينما أتحسسها كنت أراغب ملامح وجهكَ وها قد صدق ما كنت أخاله!

كنت أدري أنه ثمة شيء تخفيه في قلبك وإن لم تكن بالمشاعر منذ أمد طويل فإنني أؤكد لك أن في تلك الأثناء كان قلبكَ يخفق بغير المعتاد، كما أن ملامح وجهكَ المبتسم بدا عليها التوتر، يمكنني أن أجزم بأنَّ وجنتيكَ باتت ترجف حقًا ولكنكَ حاولت بقدر المستطاع المحافظة على تلك الملامح وإخفاء ما تشعر به؛ لإلتزامكَ بتلكَ المكابرة واللامبالاة التي كنت تبديها، فلم تفلح في نظري لكن في نظركَ نجحت.

يا عزيزي، إنَّ الدهاء على إمرأة تكتب صعب والتمرُّد عليها مستحيل، محاولة الإيقاع بها مهمة فاشلة قبل بدأها، كأنَّكَ تختبيء خلف زجاج كلَّك مكشوفٌ لديها، غريقٌ أنتَ في بحر مكرها تتشبثُ بقشّة كبريائكَ التي تدعيها، لكنها لن تنقذكَ من ثورة أمواج حِنْكتِها.

كنت تنوي الإيقاع بي وجعلي أعترف لكَ بمشاعري المكنونة تجاهكَ لكنّي سبقتُكَ بخطوة، يبدو لكَ تفسيري جنونيًا إذ زعمت أنَّه لا يوجد شيء كهذا والحقيقة أنَّه الحق.

لنعُد إلى نقطة ليست بالبعيدة: ظننتني وقعتُ في حُبِّكَ ولم تدري أنَّنِي لم أقع فيه، إنَّما أتيتُ إليكَ بكامل عقلي وقواي، بكل خُطًى ثابتة جئت لأحِبُّكَ.

دعنا نعيد إرتشاف قهوة مرة أخرى على تلك الحافة ربَّما نكتشف شيئًا أخر، أوتعلم؟!

كل شيء يمكن تخبأته إلَّا المشاعر الحقيقية تجاه من نُحب، خاصّة إن كان يبادلنا إيَّاها.

كوبُ قهوة

في الحقيقة نحن لسنا بحاجةِ كوبِ القهوة بالقدر الذي نحتاجه لمن يرتشفه معنا، بقدر حاجتنا إلى كلمات تلين قلوبنا وتريح تفكيرنا من متاعب الحياة، كلمات تبعث فينا الأمل بأن هناك أناس صادقين.
منذ آخر كوب قهوة إحتسيناه سويًّا وانا أضربت عن شربها بالسكر، أضربت عن شربها حلوة المذاق فما عاد لديها طعم بالنسبة لي، هي فقط تذكرني بك، ذات مرة سألتني صديقتي أن كيف لي بإستساقة مرارتها؟!وماذا عن مذاقها بحنحرتي؟! أجبتها على الفور:
أن طعمها كطعم قبلتك الأولى، غريب بعض الشيء لكنه غير منفر كطراوة شفتيك الرفيعتان، مذاقها ليس في حلقي إنه بمكانك أنت، بين أضلعي وتستوطن نيَّاط قلبي.
أحيانا يمكننا تغيير أنماط حياتنا فقط لأجل شخص دخل الفؤاد و سكن.
الإنسان يكتسب طباع من يحب دون إرادةً منه كدخول الأخر قلبه دون إذن والأن أصبحت أنت والقهوة تملكان خافقي الذي بات ينبض بإسميكما، يمكنني التخلي عن أي شيء اي عادة وأي شخص، إلّا أنت والقهوة حتى طيف فكرة عن هذا يرعبني، أنتما إدماني.

حين بُعْد

إنَّا ورغم أنوفنا نبتعد على أمل أن نلتقي مجددًا، جاهلين غدر القدر وأن للمولى كلمة فوق ما نريد.
كانت لديَّ بعض الأمور عليَّ الذهاب بنفسي لحلها، كما أنها أتت مفاجئة لي ولو أفكر في السفر؛ لذا خبأت عليك ظنا مني أن رحلتي لن تطول وسوف أتي عما قريب.
إلى ذاك اليوم لم نكن قد بحنا لبعض عن مشاعرنا الحقيقية، إذ كل منا اعتاد وجود الأخر في يومه وحسب، إنَّ الإعتياد على وجود شخص في حياتك أسوأ من الإعتراف له بالحب، فلأول يأتي غير إراديّ إنما الإعتراف أنت من تختاره، ربما تقبل أو ترفض وهذا قاسٍ فالشيء الذي يأتي على السجيَّة أنقى دائمًا.
ما إن وصلت أخبرتك بسفري، تضجرت قليلا لكنك سرعان ما هدأت بكلماتي، أن قلبي معك وأنها بضعة أيام وتراني أمام، شعرت بإبتسامتك وإتساع قلبي لها كذهرة تتفتح عندما تتعامد عليها أشعة الشمس صباحا، سألتني كيف كانت رحلتي وكيف وصلت أصبحت أثرثر وأثرثر، حدثتك عن كل تفصيلة فيها فدائما ما كنت أرتاح في الحديث معك وأصبحت ملاذي الآمن.
كنت فتاة متعصبة بعض الشيء في أمور الحجاب، لا أسمح بإنتشار صوري في أي وسيلة من وسائل التواصل الإجتماعي خاصة المحتوية على الرجال، فكنت دائمًا ما أستثني أي منهم عند وضع صورة لي فيها، حدث أنه ذات ليلة في شهر رمضان الكريم وبعد صلاة التراويح وضعت صورة بقصة شعر جديدة بعد أن تأكدت من قائمة الإستثناء، ففاجأتني رسالتك وأنت تأخذ إذني للإحتفاظ بها! راجعت القائمة من حديد فوجدتني قد إستثنيت رقمًا لك دون الأخر، إرتبكتُ قليلا فلم أعتدْ أن يراني رجلا دون حجاب حتى وإن كان خلف الشاشة الهاتفية، حسنًا...لا بأس لتأخذها ولأخذ أنا درسًا جيدًا في مراجعة الإستثناء قبل التهور في أي شيء، علمتُ حينها أنَّه حقًّا رُبَّ صدفةٍ هي بدايةُ حُبّ.

ليطمئن قلبكِ

أبت نفس مارس إلا وأن تنتهي بالحب الذي ظننته مستحيلاً وقد حدث كما قيل: أن مارس شهر الحب.
في ليلة باردة كليالي ديسمبر الشتوية المحببة إلى قلبي كَثُرَ حديثنا على غير المعتاد وأظنك وددت الإعتراف لي بحبك، إعتدت مناداتي باسمي دون ألقاب وهذا ما أحببته أنا، أرسلت إليّ:
-إيمي، رددت عليك بأرقِّ الكلمات فقلبي حسَّ بإرتباكك، واصلت بأنَّكَ تحبني وأمرك لله.
كانت أخر ليلة في مارس حينها تأكدت من ترددكَ؛ كي لا تفقدني كنت متردد من الإعتراف بالحب، إزدردتُ ريقي بصعوبة ورتبتُ بعثرة قلبي ثم أجبتك بعدها بثلاث دقائق:
-إني والله كما أحبك أخاف، أخاف التخلي وسط الطريق، الخذلان وأخاف أن أصفى وحيدة كحالي الآن لكن بندوب لن تشفى.
فجاءني ردك مطمئنا قلبي:
-إني رجل عرف قدر من أحب، فلا يقوى على مفارقة قلبك، وإني والذي غرسك في قلبي أخاف عليكِ مني ومن الله فيكِ، فإن رأيتِ مني سوء أعذريني. ليشهد الربُّ على ثقتي من اختياري لكِ من بينهنَّ، إن شئتِ تركتكِ تمرين لحال سبيلك لكن على وعد أن يكون لنا في الحلال لقاء.
أيا من سكنتِ قلبي: لم أنوي بكِ شرا وإن الرجل مِنَّا إن أراد فتاة وأحبها جعلها وحيدة في قلبه وأنتِ كذلك في قلبي، أتيتكِ ضيفا عند قلبك فلتقبليني ألم تقولي إنك تكرمين الضيف؟!

إذا ما عساك فاعلة بقلبي المتيم؟ لن أطيل أكثر، لكني طالبًا إياكِ بالحلال وطارقًا لباب أبيكِ بإذن الله فقط دعيني أحبكِ.
=لأجل هذا يا ديفيد أحببت سبتمبر وعشقت مارس وما بينهما أقدس يناير، فيا من سكن الفؤاد وتربعه: قمت بتدفئتي كغطاء صوفي في ليلة قارصة البرد فاحتويتني واحتضنتك دون تلكؤ.
أهلا بكَ في رحابي وأهلا بنا في مملكة الحب، أنك أول رجل دخل قلبي وسكنه فأحسن سكناه، أنت الوحيد الذي سُمِحَ لك تجاوز أسوار حصون هذه المملكة، يبدو أنك الأمير المنتظر! فَعِي لما أنت فاعل وإياك والخيانة، القوانين لدينا إما الرجم أو الرجم للخائن لا سبيل للفرار أو العفو، ها قد أخبرتك فلك خيار التنازل و الرحيل قبل بدء الرحلة.
-مولاتي: إني طائع في بلاطك وانا واعٍ لما أقول وأفعل إطمئني، كما أسلفت: أحبكِ.
=أما بعد:-
قد وجدت بكَ من الأنس ما لم أجده في غيرك والدليل على هذا سهولة إنخراطي في محور حديثكَ وسرعة انسجامي معك، كما أن قلبي رحب بك دون تردد ولم يتثنى لعقلي التفكير فيما سأجنيه من معرفتك. ألفت روحي روحك بكل سرور، لم تعد كلماتي تفي بالغرض، ثمة أحاسيس مدسوسة في حروفها حقا عدت لا أقدر ءإلى قلبي أم عقلي أستمع وكلاهما يريدك بشدة تفوق الأخر.
انا التي لطالما خفت الناس، لم أحافظ على أحد ولم تسنح لي الفرصة لإستبقائهم؛ لأني دائمة التخلي ومتراخية التشبث، أفرج لك عن جميع مساوئي من البداية؛ كي لا يخدعنَّكَ شيء لاحقا.
الآن وقد عرفت من أكون؟! تلك المتوحدة، الخائنة باتت أنيستك! كيف؟ حتى انا لا أدري، لكني أسكنتكَ قلبي أو بالأحرى أصبحت أنت قلبي كله، طبيعتك الهادئة وحسن خلقك خما من جذباني؛ لذا أمل ألا أجد في نهاية طريقي معك قنوط ينسني حلاوة مشواري معك، لا أفهم ءأنت رائع أم أن الله يجملك في حيني؟! لكني حتما أحببتك.

كذبة أبريل

بعد مغازلاتك و وعودك لي لليلة كاملة، بعد أن طمأنت قلبي وربت عليه من كل حزن مر به أرسلتُ إليك:
=أتحبني؟ أم أنها كذبة أبريل؟!(إذ أنه كان قد حلَّ صباح الأول من أبريل).
أعلم أن كلماتي قاسية على رجى مثلك، لكن...كيف لك بحب من إعتادت الوحدة؟ قل، كيف لك بطمأنة قلب فزع على الدوام؟
كيف لك بمن إعتادت الأسى وأقنعت نفسها أن ما السعادة إلا أسطورة كما الحب! عليها فقط الاستماع لها؟
هذا النهار يشبه سواد ليلي وسواد ليلي ستار مسدل على الدوام تخت عينيّ.
أسألك لا لتشكيكي في حبك، إنما للتأكيد إلى نفسي أنه حقيقة. فأجبتني:
-مهما كتبت ومهما وصفت سيظل شعوري بالحب تجاهكِ ملجم، ليس لعدم قدرتي على التعبير وحسب؛ بل لأنه أكبر من أن يحصر بين السطور، فأنا يا بديعة الخلق عندما أتفحص ملامحك أتوه وحينما تتعامد نظراتنا أغفو تماما في عينيك، المحب بصدق أسير محبوبه وأنا بتّ أسيرك للأبد.
=عزيزي، قد رأيت فينا بطلي رائعة تشيخوف(الراهب الأسود) إلا أننا تبادلنا الأدوار بحيث انا المصابة بالإنطفاء والإفراط في التفكير المُسَمّى(أندريه كوفرين).
وانت فتى أحلام أي إمرأة تسعى إلى الإرتباط كشخصية (تانيا) بالضبط.
مما جعلني أسألك:
قبل الإرتباط هل أظنك قادر على إنتشالي من قاع هذا الإنطفاء؟
هل ستمنحني السكينة؟
ءأنت مستعد لتشاركني حياتك للأبد؟
إن المرء ليس بيده لا الحب ولا الكراهية وإنه عندما أُغْرِم (لايفسكي) ب(ناديدجا) في رواية أخرى للعظيم تشيخوف تسمى (المبارزة) لم يتخيل لايفسكي أنه سيأتي يوم ويكف عن حب ناديدجا، إلى أن حصل ذاك التوتر المخيف في علاقتهما والذي جعله يعترف بتوقفه عن حبها بالرغم أنه لم يصدر أي فعل مشين او منفر من ناديدجا قرر الانفصال عنها وهي ما زالت تحبه، فبدا لي أنها علاقة متهورة بعض الشيء إذ لم يتطرقا لإنور الحياة قبل الشروع فيها معًا، منعا تبلور سؤالي المطروح عليك:
هل أنت واثق بأن حبك أقوى من الأيام والروتين الممل وكل ما هو قمئ في هذه الحياة يا ديفيد؟!

قُرِعَتْ

طُبُول

الحرب

كنت قد فرغت من صلاة نافلتي، جلست في محرابي أحدث الله عنك فرأيت شاشة هاتفي تضيء باسمك وكالعادة خفق قلبي كأنها أول مكالمة منك.
كانت من أروع ليالينا مطلقًا حيث ضحكنا كثيرا، تناولنا سحورنا أثناء تحادثنا، سألتني ألم يحن آن عودتك إليّ أم ماذا؟
أجبتك: أن السيارة غير موجودة وما أن يأتِ السائق بها سأكون هنام، أذن المؤذن منبهًا بحلول الفجر حسنًا لأتركك وسأعاود الإتصال بك حين أفرغ من عملي، في رعاية الله.
إستيغظت في صباح أسود، يوم سبت لم يأتِ أحد بعده إلى الأن، على أصوات همهمات فزِعة من خارج غرفتي ممزوجة بضربات رصاص ومدافع آتية من التلفاز، رباااه! إنقلاب؟ تمرد؟ إشتباكات؟ ما هذا؟!
لا أدري تمامًا ما يحدث فقط أن البلاد انقلبت إلى ساحة معركة.
ديفيد، ديفيييد! لا، لا، لا!
أين هاتفي؟ أين هو؟
نوبات متتالية من الهلع أصابتني، إنقطع الإتصال يا إلهي! كيف لي الأن أن أصل إليه؟
بدأت التخيلات السيئة تتضارب في رأسي، عدة مكالمات بعد عودة خدمة الإتصالات.
=وأخيرًا؟!
أتاك صوتي مرتجفًا متحشرجًا من شدة القلق.
-حبيبتي إيمي:
ما بي من شيء ولو يمسني ضر بحمد الله وفضله، لقد دخلت في بعض الإشتباكات؛ لتحرير أخواننا داخل بعض الثكنات، فلتطمئني انا الأن داخل طوارئ المستشفى، الوضع ليس بالسيء للغاية، لكنه سيء لا محال.
كُفِّي عن البكاء وأدعي لي يا بنت قلبي(كنت قد عرفتني جيدًا وأدركت طباعي بدِقّة).
=ديفيد: أنت قلبي كله، أنت نفسي وإني لا أقوى على الحياة بدونك، أُقْحِمْتُ هذه الحرب دون إرادتك فلتنتبه لنفسك، دائمًا ما كنت أدعو لك وسأدعو لك الأن فإني أرى كل سجدة تخلو من إسمك محاولة لتنشيط الدماغ ليس إلَّا.
والأن أستودعتك الله.
-يا نبضي أنت ودنياي، تعلمين إني أحبك وإن من إستأمن الله على شيء لا يضيع، الودائع عند بارئها لا تُهان وانا بخير ما دمت في حفظ الله داخل قلبك، أقدارنا مكتوبة وليس لنا في تغييرها شأن.

=دائما ما كنت ملاذي وملجأي، أمني وأماني، عُشّي الصغير الذي أختبئ بداخله.
كلماتك تريحني وتبعث الأمان بقلبي، حمدت الله على سلامتك ورجعت أتابع على التلفاز تطور الأحداث دمارٌ يتلوه دمار، حفنةٌ حمقى يقتحمون المؤسسات الحكومية يضربون بعشوائية وبلا هوادة، يقصدون كل مقر عسكر؛ ليسلبوهم إيّاه.
يوم بعد يوم وأصبح الحال يتطور سوءاً، شبكات الإتصالات تزداد ضعفًا وقلبي العشوق يضطرب رعبًا عليك.
ليلة أخرى رغم العقبات قضيناها في مكالمة هاتفية، أخبرتني أنك تشتاق رؤيتي وتريد إخباري بشيء ضروري؛ لذا يجب أن تكون المكالمة صورة وصوت!
ليلة عيد الفطر، الساعة الواحدة وربع صباحًا إتصلت بي ورأيتك ترتدي ذيّ العمل(اسكراب)، ليلة يفترض أن تنامها مرتاح البال في منزلك، ها أنت منهمك فيها بالعمل، رزم من الأوراق تنتظرك لتمر عليها وبينما أحادثك تخبرني أن طول شعري إزداد بطريقة ملحوظة منذ أن قمت بقصه بداية الشهر والتي كانت أول مرة تراه فيها، ضحكت خجلاً على حالي إذ أنني لم أنتبه حتى لما كنت أرتديه؛ لهفة رؤيتك لم تترك لي مجال التفكير.
تذكرت بأن أول الشهر حين رأيته كانت غلطة مني مثل ها اليوم، أصبح كفراشة خفيفة تطير فرحًا عندما تغازلني، أنت تفسدني بتلك الأنوثة المفرطة التي تشعرني بها وتذيد تشبثي بك.
كنت أخبرك بشيء حينما قاطعتني غمزتك وقولك:
-أتدرين؟ عندما تتحدثي لا أسمع أي شي، سوى صوت غمازتك أن قبلني، قبلني بحرارة وحسب.
=أواه لك! كم أنك مجنون!
ديفيد، إني أشتاقك يا عمري.
-فلتعلمي يا ملكة قلبي أني في كل لحظة أفتقدكِ، أحِنُّ إليكِ وأشتاق إلى تفاصيل تفاصيلك.
=تأخر الوقت وعليّ في القيام الصباح الباكر؛ لأكمل بقية ترتيبات العيد.
-حسنًا لم ولن أشبع منكِ، لكن سأدعكِ ولألتقيكِ صباحًا فأنتِ عيدي.
=لا عليكَ سأتصل بكَ إن شاء الله والأن إلى النوم سأغلق الهاتف.
-لاااااا، يا إلهي! نسيت شيئًا مهمًا لِمَ لَمْ تذكريني إيّاه؟
=ماذا دهاك صمت؟ قل: ماذا نسيت ولا تقلقني؟!
-أُحِبُّكِ.

أغلقت الهاتف وجعلتني من فرط سعادتي أجنّ، رتبت كل ما تبقى ولست أدري ما تبقى حقًا فلم أعِي لشيءٍ بعدها، أرسلتَ لي بعد صلاة الفجر مباشرة، حيث كان لم ينمْ كلينا(مقطع فيديو تعايدني فيه بنفسكَ) لمعت عيناي وكاد قلبي أن يقفز من صدري ليحلق بعيدًا؛ فرحًا لما رأى، إنه أنت بذاتكِ، أجمل وألطف معايدة حدثت معي في حياتي قائلاً:

-حبيبتي: كل عام وأنتِ لي، كل لحظة وانا أحبكِ أكثر، كل سجدة وأنتِ أمنيتي الوحيدة، مثل ما رأيتِ بأم عينكِ لا يوجد ما يدعي للخوف أو القلق، أُحِبُّكِ.

عدته مرارًا وتكرارًا، فكمية السعادة التي غمرتني بها لم يكن يسعها العالم، فرحًا بكيت على حنانكَ أنت فعلاً رائع، رائع للغاية يا وتين قلبي متى لحقت أنت تصور هذا يا مجنون؟

- مجنون بكِ صحيح؟ مممم...بعد خروجي من صلاة الفجر ودعائي بكِ، إنشغلتِ أنتِ بعض الشيء عني وكان عليّ فعل شيء لجذب إنتباهكِ لي، كما أنني وددتُ معايدتكِ بطريقة تليق بملكة مثلكِ والأن أين معايدتي؟

أنتظركِ على نار.

كان أجمل عيد وأجمل صباح، يومها فقط أيقنت أن بمقدور الإنسان أن يغيِّر منظوره السلبي عن الحب إلى إيجابي بحت كما فعلت أنا، هذا طبعًا يعتمد على الشريك ومن ثم فهم الطرفين لبعضهما وإنسجامها.

أيقنت أيضًا أن بمقدو، الحب أن يغيير فهم المرء للحياة بأنها ليست فقط للعمل أو الدراسة. أو ما شابههما، عليه أن يتطرَّق إلى نواحٍ أخرى كالحب مثلاً، لكن على النحو الصحيح، داخل إيطار معين وبمفاهيم محدودة؛ كي لا يُكْسر قلبكَ وتعود إلى ما هو أدنى من القاع، فكسر القلوب من أعظم الكسور التي لا تُسمع في العلن إنما أنينٌ صامت، لا جروح ظاهرة إنما ندوب روحية لا يمكنكَ رؤيتها حتى بالجهاز الإشعاعي.

إن الأمر المعنوي حقًا معقَّد، فأحذر من حبٍ فاسد يفسد قلبكَ ودنياكَ، يجعلكَ تقضي عمركَ ململمًا شظايا قلبكَ المنكسر، متطرفًا به ظانًّا أنَّ الكل يكذب.

يوم تلو الأخر كان يقلّ تواصلنا، أصبحتْ أقصى طموحاتي أن تنعم أذنيَّ ولو بكلمة واحدة فقط بصوتك، كانت تمر أيام عدَّة ولو أكن أعلم عنكَ شيء.

فأبَّان تطور الحرب وأحداثها مع زيادة عدد القتلى من الطرفين، بعد غيابٍ دام أكثر من أسبوع وبعد أن فكرت أنَّكَ لم تعُدْ تحبني كالسابق، أصاب علاقتنا البرود وانفطر قلبي شوقًا وتآكل قلقًا عليكَ، بعد عدّة مكالمات هاتفية وكمية من الرسائل التي لم تكن تجيبني عليها، ساءت حالتي النفسية وأصابتني بعض شظايا الرصاص، رجعتُ لتعاطي تلك المهدئآت علَّ عينيّ المرهقتين تغمض ولو لساعة، بعد الآلاف من نصوص الفقد وعشرات الخواطر العتابية التي إدخرتها لتوبيخكَ آن عودتك، قررتُ أن أكتب إليكَ رسالة الإنفصال عنكَ وإني سأتركك، برغم حبي وإخلاصي لكنه يجب الإبتعاد عن شخص لا يهتم لتمركَ، أنهيتُ كتابة الرسالة ونظرتُ إليها حيث تذكرتُ ما تمر به من عناء الحرب، سهر العمل، الإرهاق، مداهمة المرض لكَ، إصابتكَ بالطلق الناري إثر إحدى الإشتباكات، إستيلاء العدو على ثكناتكم و و و كل هذا جالَ بذهني في أقل من ثانية.

حينها تراجعتُ، مسحتها و وجهي وشاشة هاتفي، ربَّتُّ على قلبي ورفعتُ راية الفراق في تطبيق "الواتس آب" حيث هي المتنفس الوحيد فقلبي بات على وشك الإنفجار من شدة الشوق، رفعتها وصَدَف أنَّكَ شاهدتها، إرتعش قلبكَ وثار ثم قمت بالرد عليّ وسرعان ما إنتقلتَ إلى الدردشة...ناديتني وكأني قربكَ ويا ليتني كنت.

والذي خلق السماوات السبع والأرضين إنِّي لأستعذب وأستلذ اسمي عند مناداتكَ لي.

رددتُ عليكَ في قلبي بكل حب أما في الواقع فدار الحديث:

- لا يهم، فقد قلتي أنَّكِ فقدتي الشعور تجاهي وانتهى الأمر.

=إعتصرتُ شوقي واستعذتُ بالله من الشيطان الذي لا يريد لنا سوى الفراق، "كيف لا يهم؟" تلبسني الحياءُ من نفسي فأنا التي يجب أن أكون ملاذكَ الآمن من فِخَاخِ الحرب ها قد أضحيتُ ككمين.

حسنًا يا وتين قلبي أريدكَ أن تعلم أنَّه مهما أطلتَ الغياب سأنتظركَ، مهما قست الظروف سأظل بجانبكَ وكل ما جعل الله في قلبي نبض سينبض لأجل حبكَ فقط.

-تنهدتَ من شدة غضبكَ والضغطُ النفسي الذي تمر به وإنّي أدري أنّن لولا حبكَ لي لن تجبني لكنها الحرب أجبرتكَ على البُعد فلم تعد باليد حيلة.

أنت الذي كان عملك داخلياً فقط أصبحت تنزل على ميادين القتال، كنت تقسم يومك بيني وأهل بيتك فبتَّ لا تملكَ الدقائق حتى لنفسك، لم تعد ذاكَ الشاب المرح تبدّلتَ كُليًّا، عصفت بكَ الحرب، إنطفأ سراجكَ و أضاءت بدله فوهات البنادق ومع ذلك لم ينطفيء حبكَ لي فردد وكُلَّكَ أسًى:
=يا حبيبتي أنتِ: إنِّي ألومكِ فقط على قساوة كلماتكِ؛ إنَّها تجرحني حقًا وتجعلني أشعر كأن لا وجود لي في حياتكِ، نصيبي من الحب توستطه راء ولا يمكنني تغييره، ليشهد الرَّبّ أنَّها أسوأ مراحل حياتي ألمًا وأشدّها. فقدُ رفاقي، زملائي يستشهد كل منهم أمام ناظري ولا يسعفني الوقت أحيانًا لجلبِ جثّة أحدهم جراء المعركة.
-أسرت ما تبقى من كلام داخل قلبكَ المكسور الذي أضحى ساحة حربٍ هو الأخر وصمتَّ، تذايد حيائي واستملكني الوهن، إحساسي بالذنب تفاقم كما تتفاقم الحرب تجاهكَ، مسحتُ دموعي للمرة الكم لا أدري وقلت لكَ:
أعلم بحالكَ جيِّدًا فأنت لست وحدكَ من بالحرب، أنا بقلبي العشوق فيها أيضًا.
وبعد عشر دقائق ومحاولاتكَ لتهدئة أعصابكَ، أرسلتَ لي بكل برود
=يسهِّل الله كل شيء بإذنه.
-أغلقتَ المحادثة وقلبك ثم خرجت...أنتظرتكَ خمسُ أنفاسٍ ونبضة مع توقعي لرسائل حب وبمرور خمسُ نبضات أُخريات ساورنيِ الندم على معاتبتكَ، فكرتُ بثقل ظلي عليكَ وأنَّكَ تريد التخلص مني أو ربَّما تُحادث حبيبة أخرى لا، ربَّما لم يعد يعنيكَ أمري وأصابكَ الملل مني.
نفسٌ طويل قطعته تلكَ النبضة الصاعقة لقلبي، عيناي المتورمتان تنذفُ عشقًا، زاد مرضي وزاد غليان معدتي و واصلتُ الحديث معكَ، أخذتُ لكَ ألف عذر وعذر، يومها حدثتني وتآنسنا إلى أن أرسلت لي "سيلا" زميلتكَ، إنها على إتصال دائم معكَ وهي قريبة منكَ أيضًا، لم أعِرْ رسائلها إهتمام فأنا لا أريد لها التدخل بيننا، في النهاية ما بيننا ينتهي بيننا وما بيننا وبين الناس سينتهي بيننا أيضًا لا أطراف أخرى غيرنا، ثار غضبي وأجزمتُ أنَّكَ تحادثها عندما تتأخر في ردّكَ عليّ، لم تخبرني أنَّكَ تتواصل مع موظفاتكَ ولو أسألكَ.
فيا عزيزتي أنثى الحب:
من لم يكتفي بكِ وحدكِ أتركيهِ لغيركِ وأرحلي بهدوء، أو كوني صديقة بسلام...صديقة لا غير.

بثُّ أرسل وأنتظركَ مع وجود سبب مقنع في عقلي لإختفاءكَ، كل هذا بين الثالثة إلَّا ثلث والسادسة ونصف صباحًا جالسة كعادتي في محرابي أدعو لك، فمنذ أن أحببتكَ باتت هناكَ صلاة لكَ وصلاةٌ لي، دعاء لكَ ودعاءٌ بكَ...الفرائض والنوافل جميعها كنت أُؤديها مرتين، دعوتُ ألَّا يمسّكَ مكروه فيصيبني أضعافهُ، ما خاب حدسي قط، لم تتسلل أي أفكار سوداوية و وقفتُ أصلي ركعتاكَ وألحقهما دعاء.

سألتكَ أين أنت؟

فرددتَ علي بحيلةٍ

=في قلبكِ يا إيمي في قلبكِ، فتخفي إبتسامتكِ بعض الشيء، قلبي لا يحتمل كل هذا اللطف.

-آخٍ لكَ! إنه مكان إرتكازكِ أيها الضابط العنيد حافظ عليه من أولئكَ المليشيا؛ كي لا يسلبوكَ إيَّاه.

=هه، لا يستطيع أيًّا منهم فإني واثق.

-أذّن الفجر وذهب كلٌ منَّا للصلاة بعد أن أديتُ فريضتنا حيث أنني من أن عرفتك أصبحت صلاتي مرتين مرة لكَ بدعاءها ومرة لي بدعائي بكَ، جلستُ أفكّر فيكَ وأتأمل لوحاتِ الجمال على هاتفي، يا لك من جميل! قلبي يخفق لها في كل مرة أفتحها، تذكرت أول لقاء لنا وكيف كان؟ أخر لقاء، أخر تبادل للنظرات وآخر تشابك لأيادينا، ربطتُ على قلبي من جديد وأرسلتُ إليكَ رسالة نبض:

صباح الخير....

هذه ليست تحية بل نداء، فالصباح أنت والخير أنت وحيث ما كنت يكون كل ما أحتاج، أيقظني العطش لذا جئت أبحث عنك ولمَّا بم تكُن متاحًا جئتُ للمكان الوحيد الذي لا تغيب عنه أبدًا، قلبي صباحي كيف هو حال النور الساكن في عينيكَ؟ أما زال يغمر الأرض بمجرد أن تفتحها؟

إبتسمت إبتسامة لمعت لها عيناي دمعًا؛ لأني أعلم أنه آن وقت دوامكَ، إنقطع الإتصال وقطع معه قلبي، عدتُ إلى وكري الذي لم أخرج منه وهو محادثتنا لكنها تخلو منكَ، لعن الله الحرب، وبكل السِباب أصبحتُ أمقت تلكَ المليشيا التي منعتني إياكَ.

تمذقت شوقًا، انا فاقدة لنفسي في زحامهم شرقت الشمس ولا زلت جاثية بروحي في ذاك النهار الذي إلتقينا فيه، حقًا يظل المرء غريبًا حتى وسط وسط إلى أن أن مَن يألفه قلبه ويأنس إليه، بلا مأوى عندما لا يجد صحبة طيبة وهذا ما حدثنا عنة الكاتب دستويفسكي في رواية "الليالي البيضاء" فقد حكى أنه عندما قضى ثمان سنوات في بطرسبرغ ولم يقم أيَّة علاقة، تسكَّع في شوارع الدينة ثلاثة ليالٍ معانيًا إضطراب عميق دون أن يفهم ما يحدث له، كل ذلك لأنه أحسّ أنّ الجميع هجره، الجميع الذين يعرفهم ويدرس ملامحهم عن كثب إختفوا، حتى الذين لا يعرفونه هجروه وهذا ما أضاعه.

فأنا يا وتين قلبي ديفيد أرى أنه لا فائدة للروح في غيابكَ، كل وسيلة غير الأمان الروحي ليست مجدية ولا شيء يضاهي الطمأنينه بقربكَ، عيناي تتوق لرؤيتكَ ويديَّ تفتقد يديكَ...تفتقدها بشدة.
لعن الله الحرب ومن سببها، تبًّا بكل لغات العالم.
كل شيء أصبح باهت، طال غيابي عنكَ هذه المرة لكن ليس باليد حيلة كي ألقاكَ، فقد أُغلقتْ كل السبل ولم يعد اللقاء ضمن الخيارات المتاحة، خيارٌ واحد ليس له ثانٍ وهو الصبر فقط، كرسامٍ بُترتْ يديه أو كطائرٍ قُصَّ أحد جناحيه، تهبُّ ريحكَ فيرتعش جسدي لإحساسي بقربكَ، لن ألتقيكَ الآن لكن أؤمن أنَّ الله سيأتِ لي بكَ، يعقوبٌ انا ينتظر يوسف، ها وقد حدث ما كنت أخشاه وتأرجحت خطواتي، أنا التي لم يهزّني شيء الآن وقد كسرني غيابكَ، قلت عني أني قوية لكن ليس لهذه الدرجة.
طأطأتُ رأسي مجرجرة أذيال الخيبة خلفي للمرة الثامنة عشر منذ صباح اليوم في محاولة أخيرة علّها تنجح، إعتادت أذنيَّ سماع تلكَ الجملة التي حفظتها عن ظهر قلب:
"عفوًا الرقم الذي تحاول الإتصال به مغلقٌ حاليًّا"
تبًّا لكِ أيضًا أيتها الحمقاء لا تعلمين بجملتكِ هذه كم شريان شوق شددتِ علي فؤادي، أو تعلمون أن الشوق كالرباط على اللحم كلّما شُدَ إعتصر اللحم دماءه، لم تهتف بها بعد! بدأ قلبي بالإضطراب فهناك جرس! ذابت قدماي ولم تعودا تحملاني فرددتْ، رددتَ يا ديفيد بصوت يملأه الحزن ونبرة أسى واضحة ولا تعلم أن صوتكَ بكل حالاته نغمٌ على قلبي قبل أذني.

=وأخيرًا؟!
-كلمتكَ هذه نزلت على قلبي كأنه تجمد وكأن لساني رُبِط فما عدتُ أنطق.
تأكدت أنه حقيقة وأني لا أتخيل، نعم...أنتَ، رقمكَ، اسمكَ وصوتكَ لكنّكَ تبدو بائسًا للغاية، أبسبب آخر شجار دار بيننا؟ أيعقل أنكَ ظننت إني أقوى فراقكَ وأعلنتَ نهايتنا بهذا البرود؟
لا، لا يبدو أن نفسيتكَ متعبة لأجل رفيقكَ الذي استشهد والأخر الذي أُصيب بالطلق الناري جراء الإشتباكات.
حين مرضٍ كاد يؤدي بحياتي إنحنت إليَّ أمي تسألني عما يؤلمني لأنتحب صامتة هكذا؟ لا تعلم أن قلبي يصرخ ملء صماماته وهو الذي يؤلمني، ثم ماذا عن حمى الروح وصداع القلب؟ أيُشفيان بالعقاقير الطبية؟ أنت دائي ودوائي، فالقلب قلبكَ والحب حبكَ واللطف والحنان منكَ لا من سواكَ.
أخبرتكَ عن مرضي فلم تبدي أي ردة فعل تُذكر، إنَّكَ حقًا تمهِّد لشيءٍ مريب، حسنًا فهمت ما ترمي إليه يا عزيزي لكن هذه المرة لن أتسرع وأرتكب حماقة ما تدفعكَ للإبتعاد عني.
سألتكَ بصوتي الذي بالكاد يخرج من طيّات الغُصَّة التي قررت الإستراحة على حنجرتي ما به صوتكَ؟
أجبتني مشَتتًا:
=إنَّه الإلتهاب وحسب.
-أيُّ إلتهاب هذا؟ ما بالكَ يا ديفيد؟
أجبتني ممغتضبًا متصنعًا اللطف ظانًّا أنى لن أفهمك:
=مشغول، إتصلي بي في وقت أخر، إبتلعتُ تلكَ الغُصَّة التي إحتقنت دماءها في قلبي وقلت حسنًا.
دون تعقيب منكَ أو مني، لكن الأمر كان مؤلم...مؤلم جدًا.

أكتب إليكَ يا ديفيد-:

شهران بلياليهما و لا أدري عنكَ شيء، صمتكَ و قلة حيلتي كادا يمذقان قلبي ويفطرانه، هذه الحرب اللعينة التي ذهبت لإيقافها سأخبركَ بكل أسف أنها داهمتنا، ذعر دخل وسكن أرواحنا، حتى حديث الأطفال تبدَّل فما عاد عن الألعاب، بل عن الحرب، مقتل فلان وحريق الأسر، الموت بات نجاة الأحياء وحدهم من يعيشون الحرب.
سأخبركَ أيضًا عن قلقي الدائم الذي ينهشُ قلبي ككلاب ضارية وجدت فريستها، رسائلكَ القليلة تلكَ كانت تطمأنني، صدقني أن ترسل لي رسالة واحدة من حين إلى أخر خير من لا شيء، أنت عقد الصلح الوحيد بين قلبي وعقلي وأول قرار يتفقا عليه هو حبكَ، فكل قرا، يأخذه قلبي يرفضه عقلي.
الأمر أشبه بالخيال، ما كنت لأتخيّل أن يحدث لنا هذا كله لكنه بإذن الله سيمضي ولن يؤثر على ما بيننا بسوء.
تلك حربكَ أنت لكنكَ حربي دون راء، يداك أوكتاني كما إنني لا أرغب بإفلاتهما، أحبكَ رغم أنف الحرب

لم تُجِب بعد:

حاولتُ تخبأتكَ لكنكَ كياسمين عطّر الفناء وهو بمكانه، بينما أنا جالسة على الشرفة أحتسي قهوتي وأتأمل صورك إذ إنعكس ضوء القمر على شاشة الهاتف فازدانت بكما.
رفعتُ رأسي أتأمله هو الآخر، وددت لو كنّا معًا في هذه الأثناء، تذكرت كلماتكَ الحانية على قلبي آن حذني، مغازلتكَ لي أني أجمل من القمر وأضيء دنياكَ أكثر منه، لا وحتي لو إجتمع ضوء الشمس والقمر لما كان بقدر إضاءتي عالمكَ، ضحكتكَ ونظراتكَ بتطييب خاطري أن كل مرٍّ سيمر، أنت معي في كل حين وإن لم تكن ملموسًا لدي ولا بأس إن لم تكن هنا بذاتكَ، يكفيني أنكَ تنظر إليه عبري من قلبي.

حبيبي البعيد:
أما قبل-:
بينما قطرات المطر تنهال على جسدي البائس المفتقدكَ، أنسام الهواء الباردة تتخللني وتداعب وجهي والجو مثاليٌّ جدًا لنكون معًا، لنحتسي قهوتنا وتغمرني عشقًا كعادتكَ.
أتعلم كم أشتقت إليكَ ولدفء أحضانكَ؟!
لكن هذه المرة أفتقدها أكثر من أي وقت مضى، ففي هذه الساحة الواسعة ماديًّا والضيِّقة على قلبي وفي الوقت الذي يفترض أن تلتف يديّ حولكَ وتطوِّق يداكَ خصري الضيّق كما تصفه أنت، ها هي يديَّ ترتعش لفقدانكَ لا لبردها يا وتين قلبي، وقت يفترض أن نذوب في بعضنا، نمارس طقوس حبّنا ونقرع نواقيسه، أن تفرغَ أشواقكَ فيَّ بالتدريج...عينايَ اللتان سحرتاكَ من أول مرة رأيتني بها، وجنتي التي تحمرُّ خجلاً عند مغازلتكَ لي أمامهم، شفتايَ اللتان لا تلفظان غير اسمكَ، وقت يفترض أن تدفء أنفاسكَ عنقي لا هذا العقد اللعين وتتخللني أنت بدلاً عن هذه القطرات المحظوظة بلمساتها لي و الناقرة انا منها، أن اهمس بصوتي المبحوح كلماتي التي تفضلها لتذيبكَ لذة وأنغرس أنا بين أضلعكَ.
آهٍ للمسافات وتبًّا لغيابكَ، كل هذه الذكرى لاحت في خاطري وترددت كلماتكَ على مسمعي: "أحبكِ يا طفلتي" ليضطرب قلبي كأنكَ ترقص بداخله ويأليتكَ تفعل، أغوص أكثر في ذكرياتنا وعن تلك الليلة التي ثرثرنا فيها سويًّا ولم ننتبه للزمن إلى أن فوجئنا بأذآن الفجر، عن آخر موب قهوة معك على حافة البحر، أتدري؟
كان أخر كوب قهوة لي بالسكر قلت حينها ممازحة: أن يكفيني حلاوة عينيكَ ولا داعٍ للسكر.
=مجنونة أنت وإني أحبكِ
-كم تسعدني عفويتكَ وضحكتكَ، فلمعان البَرَدُ من ثغركَ يُنبت بساتين قلبي، يجعلها تذهر كأنما طلَّ عليها ري.
أيقظني من الذاكرة صوت الرعد المدوي من فوقي بعد أن تمسكت أختي بذراعي لأعود إلى الواقع الأليم وأحمد الله على وجهي المبلل بالماء ظاهريًّا ودموع فقدك في قلبي، ينكمش جسدي مرة أخر فأتمنى لو كنت بجوارك.
أشتاقكَ، أتوق لرؤياكَ تذكرت قولنا ذات مساء:
-قولي أنا: أشتقتُ إليكِ.
=قولك أنت: فلنيقِّن الأشواق فرحًا أننا حتمًا سنلتقي.
أما بعد-:
السلام عليك وعلي قلبك الجريح دون ضماد والسلام على قلبك المكسور دون صوت، أريدكَ أن تدثِّر نفسكَ جيدًا ممن حولك، فلا ندري من أي قريب تبرد روحكَ.
من قمة سعادتي أكتب إليك:
أن حبكَ ليس خطيئة لاخبأه، فإني أريد أن أخبر العالم بأكمله عنكَ، لن أخبر صديقة أو عشر على أن تتكتَّم على قصتنا، فإني أغار...أغار أن تلفظ إحداهنَّ اسمكَ فكيف لي أنا أدعها تحملكَ سرًا لي في صدرها؟!
من فرط عطشي لرؤيتكَ حتى المرآة لم أرَ سوى وجهكَ فيها، أنت لي وحدي فاعتني بنفسك لأجلي إني ليَّ الكثير لأجلكَ

محبوبتك إيمي

ما أثار قلقي وخوفي أنه وبرغم الهدنة التي مُنِحْتُم إيَّاها إلا أنني لا زلت أجهل حالكَ؛ لذا قررتُ أخرج باحثة عنكَ حينها لم يكن الأمن مستتب ولم أكن أعرف الشوارع المؤدية إلى معسكركَ، لكنني عزمت المجيىء ولما لم أجدكَ سألتُ عن صديقنا "أليكس" فدلوني على خيمته، حينما دخلت عليه وجدته مصابًا ساكنًا بلا حِراكْ، إقتربت فإذا بجرحه غائرٌ جدًا، أحسَّ بقدومي ففتح عينية المحمرتين ببطء تام، أومأ بسبابته أن أجلس وما إن جلست وتأكد عليَّ أنه أنا محبوبتكَ إنهمرت دموعه ولم يجرؤ أن ينظر في عينيّ حتى.

إنقبض صدري قبضة تكاد وتخرج كل ما في جزعي ليس صدري فقط.

ضغط على يدي بهذيانٍ واضح بعد هذا لم أستطع أن أسأله عنكَ، لم أكن أريد سماع الخبر ليتأكد ألمي وحزني فجفلت من جانبه وهرولت خارجًا أركض لاهثة بين الجثث علِّي أراكَ لأخر مرة وأتحسس وجهكَ، وجوه متشابهة ملطخة بالدماء، جثامين بعضها ممذّق وأخرى كانلة، لو رأى أحد منهم حالي لشفق عليَّ.

جثوتُ أمام إحدى الجثث ومددتُ يدي لأزيح التراب الممزوج بالدم من وجهها، فإذا بيد أليكس على كتفي، إنحنى رأسي من ثِقَل الألم وخارت قِواي أردتُ الإلتفات إليه لأجد جزءٌ منكَ فيه، ففوجِئتُ بوجهكَ أنت، لوهله ظننتُ أنني أتوهم واقفٌ أمامي بكامل هياتكَ، ناديتني أن أنهض فوقفتُ ولم أنبت ببنت شفَّة، عقلي لا يستوعب ما يحدث وقبل أن أتحدث إحتضنتني بشدَّة حتى خِلتُ أن أضلعنا تشابكتْ لتكوِّن قفصًا صدريًا واحدًا وأن قلبكَ أو قلبي هو فقط الذي ينبض.

أفقت من شرودي حين أنفجرت ضاحكًا على تفسيري لتعابير أليكس، وضحت لي أنه كان متأثراً بجراحه و لن يستطع الوقوف على قدميه مدى حياته ليشاركنا رحلاتنا كالسابق؛ لأنّ إحدى الإصابات كانت في نخاعه الشوكي مما أدى لشلله كليًّا.

-حزنتُ لأجلهِ، سألتكَ وأين كنت أنتَ؟

=ذهبت لأشتري بعض الحاجيات لكن ماذا أتى بكِ وأنت تعلمين أنه خطر عليكِ؟!

-من كل عقلكَ تسألني ماذا أتى بي؟ شهران وأكثر ولم تجِب على أيّ رسالةً مني، لا تظن أن هذا كافيًا لمجيئي؟!

أحمد الله أنني لم أجلب معي حقيبة ملابسي لأساكنكَ.

=هههههه، لم أكن أعلم ما محتوى رسائلك حتى، فقررتُ الإحتفاظ بها فقط.

-ولِمَ؟

=في كل مرةٍ يشُدَّني الحنين إليها أتذكر أنَّه سيلعب بيّ ويقودني إلى منزلكِ، لم أكن لأخاطر بلإفصاح عن نقاط ضعفي للعدو؛ لذا أثرتُ عدم قراءتها على الإطلاق.

-ألم تزول هذه التعويذة بعد؟
=أقترب النصر بإذنه واقترب معه نوعد زواجنا أليس كذلك؟
-إن شاء الله، لينصركَ الرّب ويجمعنا في حلاله.
=أوشكت الهدنة على الإنتهاء، الآن وقد إطمأن قلبكِ عليّ لا بد لكِ والذهاب في تخفٍ تام.
-حسنًا، أستودعكَ الله ولتبلّغ أليكس تحياتي.
=في رعاية الله، إنتبهي لنفسكِ حبيبتي.
-غمرتني الفرحة لرؤيتكَ ورجعت إلى المنزل خفيفة كفراشة إمتصَّت رحيقٌ بعد دهر من جوعها، أدعو الله أن تضع الحرب أوزارها في أقرب وقت، لكن في كل صباح يحدث العكس، مدينة تلو الأخر تُحتلُّ من قِبل المليشيا، تدهور الحال وحُوصرِنا من كل الجهات، أما الموت رعبًا أو جوعًا.
شهر آخر وشبة إنجلى المكان، إستيغظت ذات صباح وفي داخلي شعور ما غريب، لا حزن ولا هو فرح فقط معدتي تضطرب حينًا بعد حين ويقولون أن الشعور إذا وصل المعدة كان حقيقيًّا.
الله أكبر...
الله أكبر ولله الحمد.
-أهلَّ العيد؟ أيُّ عيد؟! يا إلهي! تحررت أرض الوطن؟!
ناداني أبي أن يا حلوتي إنتهى كل شيء دُمِّرت المليشيا وسُحِقت قوتها، قبل أن يستطرد حديثه أتاني إتصالك تصرح بأعلى صوتكَ وبكل ما أُتيتَ من قوة:
=حبيبتي، معشوقتي، يا دنيتي يا فرحتي أن أبشري، بُشراكِ يا حُسْن الحِسان فعلتها، ها قد تجاوزنا المصائب والمحن، نحن معًا، هيا ابشري....
-لم تتوقف عن الصراح بتلك العبارات قلت لك:
سنفعلها ما دمنا معًا، أحبكَ، أحبكَ، أعشقكَ، أنت بطلي لكن أصمت دعني أتحدث قليلاً.
=لا كلام بعد الأن، أريد تقبيلكِ هيا أسرعي إليّ عليكِ الخروج، عليَّ الإتيان وعلينا تحديد موعد زفافنا.

خرجتُ وسط هرجٍ ومرجٍ، الناس منتشرون في كل الشوارع بصخبّ عمَّ البلاد كلها، يُهللون ويكبِّرون حامدين الله على نصرةِ القواتِ المسلحة، هذه تعانقني وهذا يصافحني تهنأة بالنصر وانا بالي عندكَ وحدكَ يا ديفيد، كل مصافحة في يدي سلام عادي إلّا مصافحتكَ يرتعش لها جسدي وتضطرب حواسي، ترجَّلتُ أول سيارة أُجرة قاصدة وجهتنا التي لا ولم ولن نستبدلها، متى، كيف وأين لا أدري لكني في لحظة كنت أمامكَ، لمِعت أعيننا شوقًا وإحتضنا بعضنا وقوَّة كلٌ منَّا تفوق الأخر. ظللنا على حالنا هذا ما يقارب النصف ساعة من بعدها جلسنا تحت شجرتنا الكثيفةُ تلك، أمامنا البحر الثائر والذي يبدو عليه أنه يحتفل هو الأخ ربالنصر وبنا، كل هذا ولم يتفوه أحدنا بكلمة كانت فرحة ممزوجة بالألم، ها قد إلتقينا يا عزيزي تبادلنا حديثنا الصامت، شِفاهما لم تنطق فقد نطقَ الشرحُ الذي بقلبينا.
إنتهت الحروب لكن كيف بأنتهاء الحروب التي أقاموها أولئكَ الحمقى بدواخلنا؟
إن أُصلِحَ ما دُمِّر في البلاد من المسؤول عن ترميم خراب أنفسنا؟ حتى إن أستطعتم تأمينها لن تُمحى هذه الذكرى السيئة ولن تستطيعوا إرجاع قلوب فَزِعت كل هذا الأمد لسكينتها فالأمر ليس بالسهل، أخمدت الحرب نيرانها لكن رمادها بقي عالقًا فينا وما تناثر منه سيبقى أثر لندبة قاتمة لن يستطيع أيًّا مِنَّا تجاوزها.
تحملتني للحد الذي أربكني، قاطعتُ تأملكَ أن رفعت حاجبي ثم غمزتكَ وإبتسمت، عادت إليكَ بهجتكَ وقلت لي أنَّ الكلمات وحدها لا تكفيكَ لتعبِّر عن إشتياقكَ لي، ثَمَةُ إحساس أكبر وشيءٌ أعمق، تشابكتْ أيادينا وملأت أصابعكَ الفراغُ بين أصابعي واصلتَ حديثكَ الذي بترتهُ حركة يديكَ اللا إرادية حين قلت:
=دعينا نتزوّج، أخبري والدكِ أني آت لأخذكِ منه غدًا أو لحظة سأخبره أنا الآن، لم يعد في العمر متسعٌ لأدع الظروف تجبرنا على البعد مرة أخرى، إذا كان علينا البعد فلنبتعد معًا وإن كان علينا الضياع فلنضيع معًا أيضًا، لا يمكنكِ تخيُّل معاناتي لفقدكِ هذه الفترة الطويلة وألم غيابكِ عني كان يقتلني ببطءٍ حارق، كما لو كان خازوق دراكولا لقومه.

-عقلكَ ليس بمكانه صحيح؟
غدًا؟! ولأبي؟! وتقول ستأخذني لا تطلبني كأنكَ واثق أنَّكَ لن تُعترض!
=لا تلعبي معي إني أقصد ما أقول بكل حزافيره.
-ماذا لو أن أبي رفضكَ؟
=لا بأس، سآتي إلى أن أُقبل.
-ءأنت خائف؟
=الأسود لا تخاف.
-لكنكَ قطّي الأليف!
=قِطٌّ معكِ، أنسيتِ أنني حامي العرين وجالبٌ للنصر؟!
-سنرى ذلك غدًا يا حمي العرين!
=ما إحساسكِ وستصبحين زوجةً لي؟
-في قمة توتري ولن أنام هذه الليلة أفكّر فيما سيقوله والدي لكَ.
=فلتقرأي ما تيسّر لكِ من القرآن والله معنا.
-لأوّلِ مرّة أشعر كأن قلبي سيقفز من بين أضلعي لشدة تضارب نضاته.
=ءأنتِ من يجب أن تشعري بهذا أم أنا؟
-حسنًا، لماذا اخترتني؟
=ماكرة، أتختبرينني قبل أباكِ؟!
لن أجِبْ عليكِ.
-ديفيييييد!
تشعرني بحبٍ ليس له حدود وأنَّي ملكتُ قلبكَ حينما تنهزم طبيعتكَ الجادة أمام رقَّة صوتي.
=أخترتكِ لأني أحبكِ؛ لذا أرتدتُ أن أتوّج هذا الحبُّ بحلالاً طيبًا يرتضيه الله ويرضينا به،فقط تخيلي أن الله بجلاله قدره يشهد على ما بيننا بدلاً عن شاشات هواتفنا.
-إلهي! لن أحتمل!
=إدخري هذه الدموع لتكون دموع فرحٍ غدًا اليوم الذي سيكون بإذن الله مسطّرًا بحبنا مكتوبًا بحبر عشقٍ دمجناه سويًّا عن أيامنا جميعها.
-في اليوم التالي كنت أراقبكَ من علٍ كثب، تتوسطُ كبار أهلي وكما توقعتْ جالسًا كقطٍ لطيف بدلاً عن ذاك الأسد الذي حدثتني عنه البارحة، علامات التوتر تعلو وجهكَ والعقدة الجياشة بين حاجبيكَ الكثيفين التي أحبها الآن أرابتني، خاصّة وأنَّ أبي هو من يتحدّث لا أنت لكنكَ إبتسمت وأنفرجت أساريركَ أخيرًا.

حمدًا لكَ يا رب قد إختارني زوجة له، شريكة تقاسمه مرَّهُ قبل حلوهُ، أوفى بوعده وعهده وطرق بابي بالحلال، أبت نفسه أن يُيشع معي حرامًا دنيويًّا زائلاً تزول به أعمالنا، اختار درب الله فوفقهُ فيهِ الله وسدَّدَ خُطاهُ إلى أن وصل والأن:
قَبِلْتُ بِهِ.
إني أخترتكَ يا وتين قلبي كما اخترتني أنا من بينهُنَّ وسأبقى لكَ خيرُ زوجة وخير أم لأطفالنا بإذن الله.
=لم يكن الوصول إليكِ سهلاً، لكن بفضل الله وتوفيقه وصلت وسأكون لكِ خير السند ونِعم الرفيق، أوتعلمين؟!
إني إنتبهت بفضلِ تلك الشائعاتُ بف،حتي إذ تحضرين؟
إنَّ الشِموسَ تغارُ مِن ألوانِ خدُّكِ والجبين؟
إنَّ العطورَ تهُبُّ إذ تتنفسين؟!
بحرٌ وِصالٌ عاصفٌ وأنا بحكِ الغارقين
قلبي مصابٌ بالسعادةِ والغرام
تشخيصهُ متورطٌ بالحب من قبل الفِطَام
هو مُتعبٌ لكنَّه تعبُ المحبةِ يا سلام...
ولتعلمي أيضًا أنه لا يجوز لكِ الإبتعاد عني بعد الأن.د، فكلُّ صباحٍ لا أتحسسُ فيه وجهك ِ ليس إلَّا محاولة للشمس في إخفاء ضوء القمر وبدء يومٍ جديد.
-ألقيتَ عليَّ تلك المقطوعة من تأليفكَ وأيقنتُ أنَّكَ من يناسبني حقًا، أُحِبُّكَ.
ويا عزيزتي انتِ التي خُلِقتِ من حُب وخُلِقتْ خِصّيصَاً لتُحب:
لأنَّكِ تستحقين لا تخاطري بقلبكِ ولا تهبي مشاعركِ عبثًا لمن لا يستحق، من أرادكِ كان رجلاً وأتى طالِبُكِ من زويكِ لا أنتِ لعبة ولا أنتِ من تُهان.
إختاري رجلاً، يدري ما معنى أن تهَبَه فتاة قلبها...رجلاً لا ولد.

تمت بحمدالله

الإدارة:مآب مصطفى بدر
0127074819
01125719468

الدار السودانية للنشر الإلكتروني
والنشر الورقي الذاتي